# "الخلافة المغربية" بين الاستعمار واتِّحاديَّة الإسلام

نورالله آرديج*

**ملخص:** كانت قضية الخلافة تشكِّل محورًا لواقعَين مهمَّين: وجود العثمانيين في الشرق الأوسط وإفريقيا الشمالية، والتحدِّي القوميِّ العربيِّ... وقد احتوَت العناصرُ الأساسيَّة لسياسات الخلافة ثلاثَ ظواهرَ: الحرب نفسها، واستعمار القوَى الأوروبية العالَمَ الإسلامي، ومجابهة الدَّولة العثمانيَّة هذه التطوّرات، وقد أنتج هذا تحدِّيَين مشخَّصَين للحالة الراهنة التي كانت تحيط بالخلافة؛ وهما: محاولةُ فرنسا تأسيس ما يُسمَّى بـ"الخلافة المَغربيَّة" في شمال غرب إفريقيا، وتخطيطُ بريطانيا وسعيُها إلى إقامة ما يسمى بـ"الخلافة العربية" في الشرق الأوسط، وقد ردَّ العثمانيُّون على ذلك بتأييد وتأكيد شرعية الخلافة وسلطتها من خلال تحريك المؤيدين في تلك المناطق، وكان بينهم بعضُ القيادات من العلماء المغاربة.

يهدف هذا البحث إلى بيانِ وتحليل المشروع الفرَنسيِّ المتمثِّل في إقامة خلافةٍ مغربية في شمال إفريقيا، وكان ينفّذه ملكُ المغرب يوسف في أثنَاء الحرب العالميّة الأولى، وإيضاحِ مدى تأثيره، والخطورة التي كان يشكلها على دولة الخلافة العثمانية[1].

*جامعةإسطنبول شهير،تركيا

# The "Maghreb Caliphate" between Colonialism and Pan islamism

NURULLAH ARDIÇ*

**ABSTRACT** The question of the Caliphate was central to the Ottoman presence in the MENA. During WWI, the major elements of Caliphate politics involved the war, colonization of the Muslim world by the European powers, and the Ottoman Empire's response to these developments. These factors produced two challenges to the status quo: an attempt by France to devise a "Maghreb caliphate" in north-western Africa, and an "Arab caliphate" planned by Britain in eastern ME. This paper analyzes the French project of the" Maghreb caliphate" represented by King Yussuf of Morocco during WWI and its significance in terms of the Ottoman Caliphate.

*İstanbul Şehir University Turkey

رؤية تركية
2016 - (5/1)
178 - 165

## الإمبريالية الأوروبية والخلافة العثمانية

في مستهلِّ سبعينيات القرن التاسع عشر بدأت تظهر علامات التفرّق بين دول العالم الإسلامي نتيجة الهجمة الاستعمارية الأوروبية آنذاك، وقد كان الشاغلُ الأكبرُ لمُحبِّي الدولة العثمانية ومناصريها على الصعيد الخارجي(periphery) هو العملَ على إبقاء الأمَّة موحَّدةً تحت راية الخَلَافَة العثمانية بوصفها مخرَجًا وحيدًا من هذه الأزمة. وقد وجدوا لذلك رئيسًا قويًّا هو شخصية السلطان التركيِّ عبد الحميد الثاني خلال عهده الطويل (1876–1909).

ارتكزت شخصيَّة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني على إستراتيجيةٍ تكوَّنت من عنصرين رئيسين: أوَّلهما تأكيدُه الدائم أهميَّة الخلافة ودورها في سياسته الخارجية، وثانيهما عمله الدَّؤوب على حفظ الأماكن المقدسة في جزيرة العرب؛ وقد حاول السلطان توحيدَ المسلمين

حولَ رئاسته في هذه الطريق، ولذلك كان يعلِّق أهميَّةً كبيرة على ما كان يقوم به من تطويرات وتحسينات في منطقة الحجاز التي تؤهله لأن يحصِّن مَنصبه خليفةً حقيقيًّا للمسلمين، وحاميًا للأماكن المقدسة في مكَّة والمَدينة، وهذا كان من أوائل امتيازات الخليفة التاريخية والنظرية.

إنَّ ازديادَ عددِ الحُجَّاج في عهده بشكلٍ كبير –بسبب تسهيل النقل إلى الأماكن المقدسة والبلد المقدس بوسائل النقل الميسرة والرخيصة والفعَّالة، ومثاله الأشهر سكَّةُ حديد الحجاز التي أُسِّست بين عامي 1900 و1908– فسحَ مجالًا للسلطان لأن يسخِّر الحجَّ في دعم دعوته المتضمِّنة تثبيتَ شرعيته خليفةً عامًّا للعالم الإسلامي كلِّه، ومن ذلك أنَّه لجأ إلى استعمال السِّكَّة الحديديَّة وتقنيةَ السلك البَرْقيِّ وسائلَ في سياساته المركزيَّة (centralization) بقصدَ ربطِ البلاد العربية بمركز الخلافة ، كما أنَّ شيوعَ التعليم الحديث والمتقدِّم، والوسائلَ الإعلاميَّةَ الحديثةَ )من صحف، ومجلَّات، ورسائلَ، وكُتُب) ساعَدَت وأسهمَت في التطوُّر الفكري والوعي السياسي لدى الحُجَّاج بشكلٍ خاصٍّ، والشعب بشكلٍ عامٍّ، وقد أصبحت فكرةُ اتحاد المسلمين سياسيًّا وثقافيًّا (Panislamism) الموضوعَ الأهمَّ، وقضيَّةَ الساعة التي تُناقَشُ وتُبحَث في كلِّ أنحاء العالم الإسلاميِّ. كلُّ ذلك يعود فضلُه – طبعًا– إلى تأثير الصحافة والتعليم وتقنيات النَّقل، آخذين بعين الاعتبار أنَّ الحجَّ أصبح في الربع الأخير من القرن التاسعَ عشرَ يعدُّ اجتماعًا دينيًّا وسياسيًّا يُناقش فيه أهمُّ القضايا المتعلِّقة بشؤون العالم الإسلاميِّ.

ومع ذلك ظهر تغيُّرٌ جوهريٌّ طارئٌ على السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية في نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر، ولاسيّما بعد أن أصبح الحزب الليبرالي حاكمًا تحت رئاسة Goldstone في بريطانيا في 1880، وأهم معالم هذا التغيّر احتلال بريطانيا قبرص في 1878 ومصر في 1882، بعد ذلك بدأ العثمانيون يعدّون بريطانيا العدو الأشدّ والأعنف لهم مثل روسيا، وقد أسهم هذا التطوّر في زيادة حرص العثمانيين على شرعية الخلافة وتأكيدها، وهذا أصبح منذ ذلك الوقت أساس السياسة الخارجية للسلطان عبد الحميد. كان السلطان عبد الحميد الثاني ناجحًا في أغلب الأحيان في سياساته، وبخاصة الثنائية منها المتعلقة باستخدام التوتر القائم بين القوى الأوروبية، وتعزيز الاتحاد الإسلامي من خلال ربطه بمؤسسة الخلافة، وهو بهذه السياسة لم يبعد دولته من دخول معارك عسكرية على نطاق واسع وكبير فقط بل حرك المسلمين في البلاد البعيدة، مثل الهند لقضية الخلافة، وقد نجح في تصوير المصالح العثمانية والمصالح الإسلامية على أنها مصالح واحدة مشتركة، وبخاصة من خلال عنايته بالأماكن الإسلامية المقدسة وما ترمز إليه، مثل المساجد في الحجاز، كما بيّن ذلك حيث قال:

"إنَّ المسلمين في الهند بعيدون آلاف أميالٍ عن إسطنبول، ومع هذا فقد كانوا يتأثَّرون بشكلٍ كبيرٍ بالتهديدات الموجهة إلى هذه الرموز؛ أي: الأماكن المقدَّسة والخلافة، وبناء على

ذلـك كانوا يقفون بشـكل كبـير في وجه التحـرُّكات المعادية لحكومتهم. هـذه الصورة اللافتة للنظر تصوِّر لنا مدى نفوذ الدِّين وفعاليته في عملية تسييس الجمهور".

إنَّ ازدياد السـلطة السياسـية والإيديولوجيـة للخليفة والوعي الزائد للمسـلمين كانا من التطـوُّرات المقلقـة للإمبرياليـين الأوروبيين، وبدأت بريطانيا وفرنسـا بوجه خـاصٍّ ترَيان في الخلافـة تهديـدًا أكبرَ ضدَّ وجودهما الاسـتعماريِّ في العالم الإسـلاميّ في نهاية الربع الأخير من القرن التاسـع عشر، وشاركتهما في هذا القلق الحكومةُ الهولندية، وعبَّرَ الهولنديون للبريطانيين عن قلقهم في وجود رغبة زائدة بين المسلمين للاتِّحاد التي تكون "خطيرة لكلِّ الدول المسيحية".

سَـخَّرت وزارتا الخارجية البريطانية والفرنسية الإعلام، مثل (الصحف، والأخبار العامَّة في الهنـد والجزيـرة العربيَّة والقاهرة) لنشر فكرة عدم شرعية الخلافة العثمانية في مسـتعمراتهما، وادَّعـى بعضُ المسـتشرقين الذيـن يعملون لحسـاب حكوماتهم هذه الفكـرةَ أيضًا في بحوثهم "الأكاديميـة" (مـن ذلـك Samné 1927, Toynbee 1919)، وعـلاوة على ذلك كانت وزارة الخارجية الإيطالية في ليبيا، ووزارة الخارجية الروسـية في آسـيا المركزيَّة اللتان تواجهان احتمال المقاومة تحت احتلالهما- تشـاركان الإمبرياليين الأوروبيين في دعايتهم لتشـويه الخلافة العثمانيـة بوسـاطة باحثيهم الموظفـين (مثـلًا Barthold 1912, Nallino 1917)، وظلَّ البريطانيـون يعيشـون حالةً من القلق إبَّـان الخلافة -وبخاصَّة في سياسـات عبد الحميد الثاني التي وطدها- خوفًا من توسُّع رقعة الخلافة، وجعل الكثير من المسلمين تحت إدارتها.

لم يكن الاتحاديون؛ أعني رؤساء حزب الاتِّحاد والترقِّي الذين خلعوا السُّلطان عبد الحميد الثـاني عـن العـرش في 1909- يريدون أن يدعموا الخليفة ووكيله الدِّينيّ شـيخَ الإسـلام في السياسـة الداخلية، شـأنهم في ذلك شـأن الدُّول الأوروبيَّة، ولكنهم كانوا مدركين أهميتهما في السياسـة الدَّوليَّة، وعندما ظهرت فرصة مناسبة حاولوا الاستفادة من هذه الأَهميَّة؛ بادِّعاء أنَّ للخليفة وشـيخ الإسـلام سـلطةً دينيةً على الرعايا المسـلمة في دول أخرى غير الدَّولة التَّركيَّة، وقـد نجح حـزب الاتحاد والترقي في أن يـدرج عدَّة امتيازات دينيَّة للرؤسـاء العثمانيين ضمن المعاهدات التي أبرمها مع النمسـا (على البوسـنة في 1908)، وإيطاليـا (على ليبيا في 1912)، وبلغاريا واليونان (في 1913). وقد ظهرت محاولة حزب الاتحاد والترقي الأخيرة لاستغلال السـلطة الأيديولوجيـة للخليفة عندمـا أصدر السـلطان العثماني فتوى "الجهـاد الأكبر" ضدَّ قـوَّات الحلفـاء خلال الحرب العالمية الأولى، حيث دعا كلَّ المسـلمين - بوصفه خليفتهم- إلى الجهاد ضدَّ الحلفاء.

## الحرب العظمى والخلافة

شعرَتْ دولُ الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) قبل الحرب العالمية الأولى التي بدأت في28 يوليو 1914 – بالقلق من انحياز الدولة العثمانية إلى ألمانيا؛ لأنَّ قيصر ألمانياWilhelm II أنشأ علاقات قريبة مع كلٍّ من السُّلطان عبد الحميد الثاني والاتِّحاديين، وأكثر ما أقلقَهم هو إعلان الخليفة السلطان محمد الخامس الجهاد عليهم بصفته رئيسَ المسلمين، وهو ما ينذِرُ بخطرٍ عظيم على كلٍّ من بريطانيا، وفرنسا، وروسيا (وإيطاليا التي التحقت بها في سنة 1915) في مستعمراتها. وقَّعت ألمانيا والدولة العثمانية معاهدة الحلف السِّريَّة في 2 أغسطس 1914؛ رغبةً من ألمانيا في أن تستفيد من اعتبار الخليفة في العالم الإسلامي، بهدف منع الحلفاء من تقويتهم الجبهة الغربية بالجنود المستعمرين عن طريق إثارة التمرُّدات في المستعمرات المسلمة)[2] مقابل معونات عسكرية للعثمانيين.

عندما رفضت بريطانيا تسليم الحكومةَ العثمانيَّةَ سفينةً حربيةً كان العثمانيون قد دفعوا ثمنها، ولم تكتفِ بذلك، بل ضمَّتْها إلى أسطولها الحربيِّ– عند ذلك أعلنت حكومة حزب الاتحاد والترقي دعمها ألمانيا في الحرب ضدَّ قوَّات الحلفاء، وهاجمت ميناءَين روسيَّين في البحر الأسود في 29 أكتوبر 1914، وبعد أسبوعين أصدر الخليفة فتوى بإعلان "الجهاد الأكبر"، التي وقَّعَ عليها من قبلُ تسعةٌ وعشرون عالمًا، بينهم شيوخ الإسلام السابقون، وشيخ الإسلام الحاليُّ، ونصَّت الفتوى أيضًا على أنَّ الالتحاق بالحرب إلى جانب الدولة العثمانية واجبٌ دينيٌّ للمسلمين، وإذا هاجم جندي (مسلم) جيش خليفة الإسلامِ أو متحالفيه فسيُعَاقَبُ في الآخرة:

> "ما قول شيخ الإسلام دام بابه مرجعًا للأنام فيما إذا توالى هجوم الأعداء على الإسلام والمسلمين، وتحقَّق أنهم يستولون على البلاد الإسلامية باسطين أيديهم في السلب، والنَّهب، وأسر المؤمنين، وسبي المؤمنات، وصَدَرَ أمرُ أمير المؤمنين بالجهاد والنفير العام؟ هل صار الجهاد بذلك فرضًا على جميع الموحِّدين بمقتضى قوله تعالى: "انفروا خفافًا وثقالًا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم"؟ وهل تكون مسارعة جميع المسلمين في عموم الأقطار للجهاد بالأموال والأبدان شيوخًا كانوا أم شبَّانًا، مشاةً أم فرسانًا، فرضَ عينٍ أم لا؟ أفتونا مأجورين.
>
> الجواب: الله تعالى أعلم، قد صار الجهاد بذلك فرضًا على جميع الموحِّدين، وصارت مسارعتهم لذلك بالنفس والمال فرضَ عينٍ.

وحينئذٍ فالمسلمون الذين هم تحت إدارة حكومات الإنكليز والفرنسيِّين، والروس، والصِّرْب، والجبَل الأسود ومن ظاهرهم في هذه الحرب الحاضرة- لو حاربوا حكومتي ألمانيا والنمسا المظاهرَتين للحكومة السَّنيَّة الإسلامية، وكانت محاربتهم لهاتين الحكومتين تستوجب مضرَّة للخلافة الإسلامية، فهل يستحقون على ذلك عذابًا أليمًا لكونه إثمًا عظيمًا أم لا؟ أفتونا مأجورين. الجواب: الله تعالى أعلم، يستحقون ذلك"[3].

هذا الفتوى قُرِئت أيضًا في المساجد، ونشرتها الحكومة العثمانية في كلِّ أنحاء العالم الإسلامي، وفي غضون ذلك بدأ حزب الاتحاد والترقي بتنظيم "جمعيات ثورية" متعدِّدة؛ لإثارة النهضات بوساطة تشكيلات مخصوصة (الجهاز العثماني السري) في المناطق الإسلامية التي تقع تحت احتلال قوَّات الحلفاء.

زادت فتوى الخليفة من تقارب الألمان من حليفهم المسلم؛ ورحَّب بها أيضًا محبُّو الدَّولة العثمانية الذين كانوا يتصوَّرونها أمة مسلمة متحدة تحت راية الخليفة، إضافة إلى ذلك فقد أدَّى إعلان الجهاد إلى زيادة المنشورات في إفريقيا الشمالية، ولاسيّما من منظور الدولة العثمانية، فقد كتب العالم الناشط الشيخ صالح الشريف التونسي الذي كان ذا علاقات قريبة من الدولة كتبَ رسالة باللُّغة العربيَّة بعنوان "الحقيقة في الجهاد" (1915)، وتُرْجِمَت توًّا إلى اللغات الألمانية، والفرنسية، والتركية، ووزِّعت في أوروبا والشرق الأوسط.

ومع أنَّ فتوى الجهاد وفعاليات التشكيلات بقيت عقيمة في الأغلب، فإنَّ قوَّات الحلفاء كانت في ذعر أمام هذه التطوُّرات، ولذلك أصبحت الخلافة مرَّة أخرى مسألة النقاش المهمّة بين دول الحلفاء التي كانت واضحةً، ولاسيّما في المعاهدتين السرِّيتين اللَّتين وقّعتهما قوَّات الحلفاء في أثناء الحرب العظمى، وهاتان المعاهدتان هما: معاهدة القسطنطينية (نيسان 1915)، واتفاق Sykes–Picot (مايو 1916)، وبهاتين المعاهدتين قسَّمت قوَّاتُ الحلفاء الشرقَ الأوسَط بينها، وقبلت أن تُهدَمَ الخلافةُ العثمانية، بينما كان الفرنسيون والإنكليز، بوجه خاص، يرغبون في تشكيل "خلافة عربية" تحت سيطرتهم.[4]

## الاستعمار الفرنسي و"الخلافة المغربية"

كانت فرنسا المنافسَ الأكبرَ لبريطانيا في الاستعمار؛ كما كانت تنافس إيطاليا وإسبانيا، ثمَّ ألمانيا- في استعمار إفريقيا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأصبح الفرنسيون حكَّامًا على معظم شمال شرق إفريقيا قبل الحرب العالمية الأولى، مع أنَّ الاستعمار الفرنسي كان قد بدأ قبل أكثر من قرن؛ إذ كان Napoleon Bonaparte قد احتلَّ مصر لمدَّة قصيرة (1798–1801) قبل هزيمة العثمانيين لها بمساعدة بريطانيا؛ ثم احتلَّت فرنسا الجزائر في 1830، وتونس في 1881، وفيما بعد بدأت تنافس بريطانيا في استعمار مصر، وإسبانيا في استعمار المغرب، وكان البريطانيون متأكدين أنَّ الدولةَ العثمانية ستنهار في وقت قريب، وكانوا جاهزين لِأن يتركوا فرنسا في إفريقيا الغربية وحيدةً مقابل تثبيت موقفهم في الشرق، وفي يونيو من عام 1903 كتب القنصل العام في القاهرة اللّورد Cromer:

> " يطول كربُ الدول الشرقية المتفسخة مثل تركيا وإيران بسبب المناقشات والمنافسات بين المرشحين المحتملين للسلطة... وفي رأيي أن تثبيت سلطة فرنسا كان سيكون نافعًا لعدم استمرار كرب المغرب مدَّةً طويلة" .

وقّعت الحكومة الفرنسية في 1904 ما يعرف باسم Entente Cordiale مع بريطانيا التي كانت قد احتلت مصر سابقًا في 1882، وقد منحت هذه المعاهدة "laissez–faire" المغربَ لفرنسا، ومصرَ لبريطانيا، وفي العام نفسه وقّعت فرنسا اتفاقية مشابهة مع إسبانيا التي تحتُّل بموجبها الأجزاءَ الشمالية والغربية للمغرب سابقًا؛ ووفقًا لهذه الاتفاقية قسمتا البلد بينهما؛ ثم وقّعت اتفاقية أخرى مع إيطاليا تمنحها الحقَّ في استعمار ليبيا قريبًا، ووقّعت فرنسا في سنة 1911 أيضًا اتفاقيَّةً مع ألمانيا أقرت بها فرنسا بمصالح الألمانيين في شمال إفريقيا، وبذلك استطاعت فرنسا أن تُسكت ألمانيا، وتنهي معارضتها لها في استعمار المغرب، وفي عام 1912 جدَّدت إسبانيا وفرنسا الاتفاقيَّة بينهما، مع تأكيدهما حقوقهما المتبادلة، وأنَّ نفوذهما واضحٌ في المغرب. وبناء على ذلك تصبح فرنسا المتحكِّم الوحيد بالحكومة المغربية، ومعظم منطقتها إضافة إلى الجزائر وتونس.

كان جميع إفريقيا الشمالية -ماعدا تونس والمغرب والسودان- تحت حكم الدولة العثمانية سابقًا، وكان لفرنسا دور مهمّ في التطوُّر العثمانيِّ، ولاسيّما في الجيش والتعليم، وقد أشرف على ذلك خبراء من الجيش الفرنسي، لكنَّ النشاطاتِ الاستعمارية الفرنسية في المنطقة وسعيَها إلى احتلالها المناطقَ العثمانية المسلمة في إفريقيا أفسدت العلاقات الجيدة والودِّية التقليدية بين الدولتين في نهاية الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأدّى إلى استبدال العثمانيِّين بفرنسا ألمانيا لتكون شريكًا رئيسًا لهم، مع أن السياسة الخارجية للسلطان عبد الحميد كانت محايدة في الأغلب إزاءَ الدول الأوروبية. بوصفها دولةً قوية مسلمة وحيدة.

كانت الدولة العثمانية شريكًا أفضل لألمانيا التي تعاونت معها وساعدتها، ولاسيّما في التحديث العسكري والاقتصادي، وحصد ثمار هذا التعاون في الحرب العالمية الأولى، كما أنَّ تأثيرَ النموذج القومي-Etatist لألمانيا باتَ أوضح في حداثة "الشباب الأتراك" عقب حكم عبد الحميد الثاني.

من جهة أخرى، كان العامل الأساسي الذي أخَّر استعمار المغرب (إفريقيا الشمال الغربي، إضافةً إلى ليبيا) هو التعاون القريب بين العثمانيين والحركة السنوسية التي أسسها السيد محمد بن علي السنوسي (1787-1860) في المغرب ضد الإمبريالية الأوروبية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، باعتبارها حركة سياسيَّةً دينيَّةً:

> "أدّى السنوسيُّون دورًا مركزيًّا في الإستراتيجية العثمانية لمنع التدخُّل الفرنسي والإيطالي في إفريقيا الشمالية والصحراء الكبرى، والحجاز، وقد ساعدت معاونة العثمانيين السنوسيين في تدعيم وضعهم الاجتماعي في ليبيا، وأن يكونوا جماعة سياسية تحكم المنطقة، وفي مقابل هذا ساعد السنوسيُّون السلطانَ [عبد الحميد الثاني] في الحفاظ على سلطته في إفريقيا الشمالية، وتدعيم اتصالاته بتشاد، وبورنو، وغير ذلك، وكان هذا التعاون يعتمد على المصالحِ المتبادلة، والألفة الإسلامية الإيديولوجية..."

استمرَّ هذا التعاون بعد خلع السلطان عبد الحميد من قبل حركة الشبان الأتراك أيضًا، وقد كان أنور باشا الرئيسُ الأقوى لحزب الاتحاد والترقي وقائد القوات العثمانية أيضًا في ليبيا في 1912 صديقًا حميمًا للرئيس السنوسي أحمد الشريف، وتدرَّب أكثر من ثلاث مئة ضابطٍ سنوسيٍّ في المدارس العسكرية التركية[5]. وكان السنوسيُّون ناشطين في المغرب، وساعدوا في تأسيس العلاقات المتبادلة بين الخلافة العثمانية والسلالة الشريفية (العلوية) الحاكمة التي أُسِّست في عام 1659 هناك.

ومع كلِّ ذلك لم تكن هذه الجهود ناجحة بشكل عام؛ فالسُّلطان عبد الحميد كان يريد منهم أن يعترفوا به خليفةً لهم؛ لكنَّ السلاطين المغاربة أرادوا أن يبقَوا مستقلِّين، وكانوا سيخفقون في الحصول على هذا الاستقلال بسبب الاحتلال الفرنسي الذي بدأ في 1904، رغم أنَّ الشبان

الأتراك أرسلوا ضبَّاطًا إلى المغرب، ونظَّموا هناك مقاومة ضدَّ الجيوش الفرنسية والإسبانية بنجاح قبلَ وخلالَ الحرب العالمية الأولى، كلُّ هذا جعل العلاقة والتَّعاون بين السُّلطان والسَّنوسيِّين ضيِّقةً ومحدودةً أيضًا.

## "الخلافة المغربية"

حافظت الحماية الفرنسية في المغرب (1912–1956) التي أُسِّست بموجب «معاهدة فاز» على موقف السلطان يوسف بن حسان (1912–1927)، ومنحته سلطة ضئيلة، بينما كان الوالي الفرنسي العام المشير (1912–1915) Hubert Lyautey الحاكَم الحقيقيَّ للبلد، وهو الذي أصدر القراراتِ الملكيةَ، ورشَّح الموظفين الساميين، إضافة إلى استغلال موارده.

حاولت فرنسا إحداث "خلافة" في المغرب لضبط السكان المسلمين أيديولوجيًّا في مستعمراتها في جميع إفريقيا والشرق الأوسط، وكان الفرنسيون مدركين أنَّ الخلافة العثمانية قد ضعفت بعد السُّلطان عبد الحميد الثاني، وفي الوقت نفسه كانوا قلقين من أنَّ البريطانيين

سـيُنصِّبون خليفتهـم الدُّميـة في جزيرة العرب، ولذلـك كانت الحكومة الفرنسـية تبحث عن فرصة مناسـبة لتنصيب خليفة تحت سـيطرتها المباشرة، وقد أعطِيت هـذه الفرصة قبلَ الحرب العالميـة الأولى عندمـا أخفقت دعـوة الخليفـة العثمانية إلى الجهـاد في الأغلب، وبـدأ الشريف حسـين في مكَّةَ الذي كان سـيعلن نفسه خليفة فيما بعد- يستعدُّ للاستقلال بمساعدة بريطانيا، وفي هذا السياق، برز ملك المغرب يوسف مرشَّحًا أفضل للخلافة لحساب فرنسا؛ لأنَّ الأسرة الشريفية الحاكمة -المعروفة بالعلويين أيضًا- كانت تدَّعي باسـتمرار، منذ تأسـس حكمهم في القرن السـابع عشر، أنها من أحفاد الرسـول محمد عليه الصلاة والسـلام من جهة ابنته فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها.[6]

إن المعلومـات حـول المصـادر التَّاريخيـة في «الخلافة المغربيـة» قليلة[7]؛ لأنَّ هـذا المشروع لم يكتمل، إذ رفض عموم العالم الإسـلاميُّ الاعتراف بالخلافة العربية وإلغاء الخلافة العثمانية في تركيا في عام 1924، وما تبعه من محاولات غير ناجحة لانتخاب خليفة جديد، وكانت فرنسا (وبريطانيـا) سـتوقفان مشروعهما في الخلافـة، ومع ذلك حاولتا خلال الحـرب العالمية الأولى تأسيس الخلافة التي يريدانها، وقد نَفّذ هذا المشروع في المغرب الوالي العام الفرنسي Lyautey، ووزير الخارجية Delcassé اللَّذان توقعا في بداية عام 1915 أنَّ حرب الدردنيل المستمرة بين بريطانيا والدولة العثمانية سـتنتهي قريبًا بهزيمة الدولة العثمانية، وأنَّ انتهاك إسـطنبول من قبل قوَّات الحلفاء سـينهي الخلافة العثمانية، وسـيفتح طريقًا أمام البديل عنها، وكان Lyautey و Delcasséيعرفان أنَّ بريطانيا تستعدُّ لتعيين الشريف حسين خليفة، ورأى الفرنسيون أنَّ هذا أسوأ احتمال في الحال الراهنة .

لذلك اقترح المشـير Lyautey أنَّ مصلحتهم الأكبر هي تنصيب السلطان المغربي "خليفة الغرب" في المغرب، الذي سـيكون رئيس المسلمين في مستعمرات فرنسا حالما تزول "الخلافة الشرقية" (في إسـطنبول) ، وكان الفرنسـيون يدركون أنَّ تعيين رئيس دينيٍّ للمسـلمين يحتوي عـلى بعـض الصعوبـات؛ ولذلك سـوّغوا خطتهم بـأنَّ المشـكلاتِ الدينيـةَ تـؤدّي دورًا مهمًا في تشـكيل مسـتقبل البـلاد المسـلمة، وهـذا يتطلب أن تكـون هنـاك "رئاسـة روحانية" لحلِّ مشـكلاتهم، واعتقدوا -أيضًا- أنَّ مسـتقبل الإمبريالية الفرنسـية في إفريقيا الشمالية مرتبط إلى حـد بعيد بمدى سـيطرتها على الخلافة في المسـتقبل، ولذلك خططت لتعيين السـلطانِ المغربيِّ خليفة، وهو نفسه الذي ادَّعى أنَّه قد اُعترِف به سابقًا في الجزائر وتونس خليفة كما في بلده .

عندما خُطِّط هذا المشروع نشرت الصحافة الفرنسية فكرة "الخلافة المغربية" خلال خريف 1915 وطلب ملك المغرب السـلطان يوسـف من كبار العلماء في المغـرب أن يصدروا فتاوى مؤيـدة لدعـواه الخلافة، فأطـاع بعضهم هذا الأمر ورفـض آخرون، وأيَّدوا بـدلًا منه الخلافةَ العثمانيةَ.[8]

أدركت إسطنبول خطورة هذا المشروع، وقد ردَّ المفكرون والناشطون من إفريقيا الشمالية الذين كانوا يعملون للدولة العثمانية، أمثال: الصفايحي إسماعيل أفندي (1856–1918)، والشيخ صالح الشريف التونسي (1869–1920)، وعبد العزيز الجاويش (1876–1929) الذين كانوا من أكابر علماء تونس، وكانت لهم علاقات قريبة مع حزب الاتحاد والترقي، وكانوا يعملون لحساب التشكيلات المخصوصة– فورًا على الدعاية الفرنسية من خلال نشر المقالات والكتب التي تعكس وجهة نظر الدَّولة العثمانيَّة آنذاك.

كتب إسماعيل الصفايحي الذي درَّس في مدرسة الزيتونة، وكان القاضي الحنفي (السابق) بتونس، قبل ذهابه إلى إسطنبول التي عاش فيها حتى موته في 1918م– كتابًا بعنوان: «إيقاظ الإخوان لدسائس الأعداء وما تقتضيه حال الزمان في 1915م»، وكتب الشيخ صالح الشريف التونسي الذي درَّسَ أيضًا في مدرسة الزيتونة طوال اثني عشر عامًا، وكان مديرَ التشكيلات الإقليمية المخصوصة في إفريقيا الشمالية– كتابين؛ الأوَّل بعنوان: «شرح دسائس الفرنسيين ضدَّ الإسلام والخلافة»، والثَّاني بعنوان: «الخلافة الإسلامية العظمى»؛ ليردَّ بذلك على دعايات الفرنسيين في 1916، وكتب عبد العزيز جاويش الذي وُلِد في القاهرة، ولكنَّه تونسي الأصل، وكان من رؤساء الحزب الوطنيِّ المعارض لبريطانيا في مصر، ورأس تحرير جريدتَي اللِّواء وThe Egyptian Standard– كتابًا بعنوان: «الخلافة الإسلامية» الذي نشرته التشكيلات المخصوصة في إسطنبول باللغتين التركية والعربية في 1916،[9] ونُشرت جميع هذه الكتب التي ألّفها هؤلاء العلماء المغربيون ردًّا على دعايات الفرنسيين والبريطَانيين والمغربيين (الذين كانوا يؤيِّدون السلطان يوسف العلوي ملك المغرب)، واعتمد مصنِّفوها على الدلائل الإسلاميَّة وفكرة اتحاد الأمَّة المسلمة، وأسَّس هؤلاء العلماء أيضًا جمعيات مناصرةً للدولة العثمانية، وألقَوا محاضراتٍ عن قضية الخلافة العثمانية، وضدَّ القومية العربية، والإمبريالية الأوروبية في أوروبا وإفريقيا الشمالية، ولاسيّما في برلين والقاهرة.

ومع أنَّ الهدفَ الأساسَ من هذه الانتقادات هو نشاطات فرنسا الاستعمارية، إلَّا أنَّ إسطنبول كانت قلقةً من المشروعات البريطانية المتمثلة في تنصيب خليفة عربيٍّ في الأماكن المقدَّسة بشكلٍ أكبر من مشروع فرنسا في المغرب الذي كان على كلِّ حَال خارجَ المتناوَل العثماني إلى حدٍّ كبيرٍ، وقد تخلَّت فرنسا بعد عام عن المشروع، ووقَّعت صفقة مع البريطانيين من خلال معاهدةSykos–Picot السرِّية في مايو 1916، التي منحت لفرنسا الحقَّ في السيطرة على سوريا، مقابل إعطاء بريطانيا حريَّة التصُّرفِ في بقيَّة العالم العربيِّ، وفي مشروعاتها للخلافة العربية.

## الخاتمة

كان مشروع «الخلافة المغربية» العقيمة جزءًا من الكفاح السياسي والأيديولوجي الكبير في السياق التاريخيِّ الذي شكَّله تأثير العوامل الثلاثة، وهي: الاستعمارُ الأوروبي المبكِّر للقرن العشرين، والحربُ العالمية الأولى، وردُّ الدولة العثمانية عليهما، وقد أدَّى المشروعُ الفرنسيُّ القاضي بتنصيب ملك المغرب يوسف «خليفةً إسلاميًّا»، ودعاية فرنسا وبريطانيا بالصحافة في كلٍّ من أوروبا والشرق الأوسط بما في ذلك الهند- إلى اندثار دعايتهما المعارضة للدولة العثمانية، وجاء تأكيد العثمانيين من جديد شرعية الخليفة العثمانية وسيطرته على جميع المسلمين، رَدًّا طبيعيًّا على هذه الدعاية.

إنّ الجذور التاريخية لهذا الصراع ترجع إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حين أكَّد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1876-1909) في سياسته الخارجية أهمية الخلافة، وأنفق على الحجاز بهدف تركيزِ الدولة بشكلٍ أكثر، وإقامة نفسه حاكمًا اسميًّا للعالَم الإسلاميِّ، وحفظِ توازن القوَّة بين دولته والدول الأوروبية، وقد أرعبَ نجاح سياسته النسبي الدول الأوروبية، ولاسيّما بريطانيا وفرنسا، اللتين كانتا تملكان سكانًا مسلمين كثيرين في مستعمراتهما، ومع نهاية عهد عبد الحميد انحدرت قوَّة الخلافة ومكانتها الاعتباريَّة.

أدرك الشبان الأتراك، رغم أنَّهم أضعفوا الخلافة في إسطنبول حين خلعوا السُّلطان عبد الحميد الثاني- أهميَّةَ الأخير في السياسات الخارجية، ولذلك حاولوا أن يستفيدوا من اعتبار الخليفة القوَّة الأيديولوجية بين المسلمين، ولتحقيق هذا الهدف طلب الشبان الأتراك من الخليفةَ محمد رشاد إعلان «الجهاد الاكبر» ضدَّ قوَّات الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى، وإضافة إلى ذلك، نظمت تشكيلات مخصوصة (الجهاز السري العثماني) نشاطات مختلفة في مستعمرات بريطانيا وفرنسا لتنظيم المسلمين فيها ضدَّ مجموعة الحلف، وقد اشترك - كما مرَّ سابقًا- بعض المفكرين الناشطين من إفريقيا الشمالية، بينهم ثلاثة علماء من تونس، هم: «عبدالعزيز الجاويش، والشيخ إسماعيل الصفايحي، وصالح الشريف التونسي»- في هذه النشاطات، فنشروا كتبًا ومقالات، وألقَوا محاضرات، وأسَّسوا جمعيات لدعم الخلافة العثمانية ضدَّ كلٍّ من الأوروبيين والقوميِّين العرب، ومع ذلك لم تستطع جهودُهم السياسية والفكرية أن تمنع خسارة الدولة العثمانية خلال الحرب العظمى، واحتلال فرنسا وبريطانيا جميع الشرق الأوسط حتى نهاية 1918.

كانت فرنسا -إثرَ الحرب العالمية الأولى- تتنافس مع بريطانيا، وإيطاليا، وإسبانيا، ولاحقًا ألمانيا على جزيرة العرب وإفريقيا الشمالية، ومع ذلك، وقَّعت فرنسا قبل الحرب العظمى اتفاقيات مع جميع هذه الدُّول عدا ألمانيا، واستعمرت أجزاء من هذه المناطق المسلمة، وقد أخَّر التعاون السنوسيُّ العثمانيُّ الذي كان قد بدأ سابقًا خلال عهد عبد الحميد- استعمارَ المغرب،

واستطاعت فرنسا احتلال الجزائر ومرَّاكش التي اقتسمتها مع إسبانيا حتى 1912، وبعد ذلك خطَّطت الإدارة الاستعمارية الفرنسية لتنصيب ملك المغرب آنذاك يوسف الذي كان تحت حكمهم كاملًا- خليفةً في المغرب الكبير، وقد سوّغ الفرنسيون هذه الخطة بأنَّ الدين سيكون عاملًا مهمًّا في تشكيل مستقبل المسلمين الذين يحتاجون إلى «سلطة روحانية» في هذا السياق، وأنَّ «الخَلافة الشرقية» في إسطنبول لم تعد فعّالة، ووفقًا لهذه الخطة، كان الهدفُ أن يكون الخليفة رئيسَ المسلمين في مستعمرات فرنسا.

واضحٌ أنَّ هذه الخطة استهدفت تشكيل بديل للخليفة العربيِّ (الملك الشَّريف حسين في الحجاز) الذي تنصبه بريطانيا، ولذلك اعتزمت فرنسا أن تنشئ توازنًا معاكسًا ضدَّ مشروعات بريطانيا التي تنصُّ على تنصيب رئيس مسلم روحاني تحت سيطرتها في الشرق الأوسط.

إنَّ هذا المشروع الفرنسي يدلُّ -رغم أنَّ الفرنسيِّين تخلَّوا عن فكرة «الخلافة المغربية» بسبب الصفقة التي وقعوها مع بريطانيا قبل وخلال الحرب العالمية الأولى- على أهميَّة الخلافة من حيث الصراع السياسي بين المستعمِرين الأوروبيين والعثمانيين.

## المصادر والمراجع:


1. Abun-Nasr J. (1987) A History of the Maghrib in the Islamic Period, Cambridge, UK: Cambridge University Press
2. The American Journal of International Law (1913) "The Treaty of November 27, 1912, Between France and Spain Concerning Morocco" vol. 7, no. 2 (Apr., 1913)
3. Ardıç (2012) Islam and the Politics of Secularism: The Caliphate and Middle Eastern Modernization in the Early 20th Century. London and New York: Routledge
4. Arnold T. W. (1965) The Caliphate, London: Routledge & Kegan Paul
5. Barthold V. (1912) "Halife ve Sultan", Mir Islama,[Published in,Hilafet Risaleleri, vol. 3, İstanbul: Klasik, 2003]
6. Bayur Y. H. (1983) Türk İnkılabı Tarihi, 3 vols. Ankara: TTK
7. Cleveland W. (2000) A History of the Modern Middle East, 2nd ed. San Fransisco: Westiew Press
8. El-Moudden A. (1995a) Le Maghreb à l'époque ottomane, Rabat: Royaume du Maroc
9. El-Moudden A. (1995b) "The Idea of the Caliphate between Moroccans and Ottomans: Political and Symbolic Stakes in the 16th and 17th Century-Maghrib"Studia Islamica, no. 82: 103-112
10. Fromkin D. (2001) A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East, New York: MacMillan
11. Goldschmidt A. (2005) A Concise History of the Middle East, 8th ed. London: Westview Press
12. İnalcık H. (1988) "Recession of the Ottoman Empire and the Rise of the Saudi State" Studies on Turkish-Arab Relations, no. 3: 69-85
13. Jawish A. (1916) Hilafet-i İslamiye, İstanbul: el-Adl Matbaası, [Published in1334 Hilafet Risaleleri, vol. 4, İstanbul: Klasik, 2004
14. Karpat K. (2001) The Politicization of Islam: Reconstructing Identity, State, Faith and Community in the Late Ottoman State, New York: Oxford University Press

15. Landau J. (1971) The Hejaz Railway and the Muslim Pilgrimage: A Case of Ottoman Political Propaganda, Detroit: Wayne University Press.
16. Le Matin de Paris (1915) "Islam et la Guerre" November 10th,1915.
17. Monroe E. (1963) Britain's Moment in the Middle East, 1914-1956, Baltimore: Johns Hopkins Press.
18. Nallino C. A. (1917) Hilafet ,[Published in Risaleleri, vol. 4 , İstanbul: Klasik,2004.
19. Nevakivi J. (1969) Britain, France and the Arab Middle East 1914-1920, London: Athlone Press.
20. Özcan A. (1998) "İngiltere'de Hilafet Tartışmaları" İslam Araştırmaları Dergisi, no. 2.
21. Safayihi I. (1915) Iqaz al-Ikhwan li-Dasais al-A'da wa Ma Yaqtadhih Hal al-Zaman, İstanbul: Matbaa-i Askeriye, 1331 [Published in Hilafet Risaleleri, vol. 4, İstanbul: Klasik, 2004.
22. Samné G. (1919) Hilafet ve Panislamizm, [Published in Hilafet Risaleleri, vol. 4, İstanbul: Klasik, 2004.
23. Stoddard P. (1963) The Ottoman Government and the Arabs, 1911 to 1918: A Study of the Teskilat-i Mahsusa, Princeton, NJ: Princeton University Press
24. Toynbee A. (1927) Survey of International Affairs, 1925, vol. 1: The Islamic World since the Peace Settlement. London: Oxford University Press.
25. Trumpener U. (1968) Germany and the Ottoman Empire, 1914-1918, Princeton, NJ: Princeton University Press.
26. Tunusi S. (1916a) İslama ve İslam Halifesine Karşı Fransızların Desiseleri (Sharkhu Dasais al-Fransees Zidda al-Islam wa Khalifatih),[Published in Hilafet Risaleleri, vol. 4, İstanbul: Klasik, 2004].
27. (1916b) Hilafet-i Muazzama-i İslamiye, [Published in Hilafet Risaleleri, vol. 4,) İstanbul: Klasik, 2004].


28. للبحث عن دور الخلافة في المكافحة السياسية والعسكرية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية، وفي تحول الشرق الأوسط في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، انظر .Ardıç (2012)

29. في تلغراف سريٍّ للغاية أرسلWilhelm II رسالة إلى رئيس الوزراء العثماني سعيد حليم باشا، وكان ذلك في 5 أغسطس 1915، طمأنَ العثمانيين، وأكّد انتصارَهم بشكل واضح وأضاف: "سلطة الخليفة كبيرة بقدر الكفاية لتحثَّ جميع المسلمين في العالم على القيام بتحَالف ضد قوَّات الحلفاء» (اقتبس في Satan 2008: 41) .

30. "جهاد أكبر فتاواي شريف سي" جريدة علميّة، المجلد الأول، العدد السابع (1914م - 1333ه)، الصفحة 440-443. بحث علمي جديد في جريدة علميّة، جريدة رسمية نشرتها دائرة شيخ الإسلام (وزارة الشؤون الشرعية العثمانية). انظر Cebeci (2009) نصُّ الفتوى نُشِر أيضًا في الصحيفة الرسمية تقويم وقايع، 23 نوفمبر 1330 [1914].

31. وعد البريطانيون أيضًا بتأسيس مستوطنات يهودية في فلسطين بإعلان بلفور Balfour في 1917 لترغيب اليهود في الهجرة من أمريكا وروسيا وألمانيا، وعقدت بريطانيا وفرنسا اتفاقيتهما رسميًّا في San Remo لاحقًا في 25 نيسان 1920، وبموجب هذه المعاهدة أسست فرنسا الانتداب على سورية ولبنان، وبريطانيا على العراق وفلسطين (Nevakivi 1969: 260).

32. السنوسيُّون الذين حاربوا الإيطاليين قبل وخلال الحرب العالمية الأولى أصبحوا- أيضًا- حكَّامًا على ليبيا بعد الاستقلال، وذلك عندما صار إدريس الأول حفيد محمد السنوسي ملكًا في عام 1951، وهو الذي أسقِط بانقلاب عسكريٍّ قاده معمرُ القذافي في عام 1969.

33. لتحليل العلاقات العثمانية-المغربية وأهمية الخلافة فيها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، انظر El-Moudden (1995b).

34. كثير من الحكام المحليين كانوا يسمّون باسم "الخليفة"، وتعني النائبَ أو الوكيلَ، ويشير إلى ولاية السلطان المحلية، وكان هذا العنوان قبل استعمار المغرب يُستخدَم بشكل خاص لممثلي السلطان الرسميين في مراكش، وفاس، ومكناس: العواصم القديمة.

35. أشكر الأستاذ عبدالله الترغي من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، الذي أخبرني بهذه المعلومات، وأعطاني نسخ بعض الفتاوى التي نشرها العلماء المغاربة في 1915.

36. لمزيد من المعلومات الإضافية عن هؤلاء العلماء الناشطين وفعالياتهم، انظر(Ardıç (2009: 122-124.

SETA
SİYASET, EKONOMİ VE TOPLUM ARAŞTIRMALARI VAKFI
FOUNDATION FOR POLITICAL, ECONOMIC AND SOCIAL RESEARCH
مركز الدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية

setav.org

# Neighboring a Civil War: Turkey's Border Security With Syria

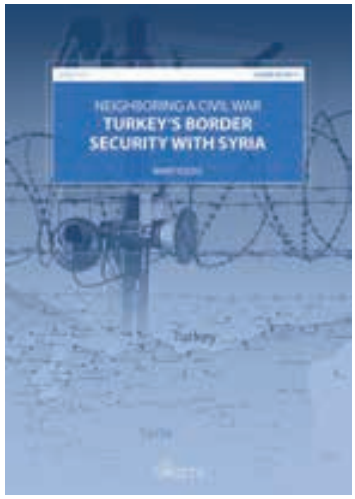


By MURAT YEŞİLTAŞ

***This paper analyses the issue of how Turkey's border security policy has been shaped since 2013.***

This paper analyzes the issue of how Turkey's border security policy has been shaped since 2013, the year in which Syrian crisis began to deepen and ramify. This analysis draws on interviews with government officials as well as non-governmental organization representatives. So, these parts are included in various sections of the text as much as possible.

In the analysis, changes in Turkey's border security policy in recent years were investigated just after the global and regional divergences in this policy had been addressed. Within the context of the Syrian crisis, the parameters of Turkey's respective policy, struggle against Foreign Fighters (FF) and the military measures taken were also covered.

***Read the Analysis online:***